

هنا قضية لا تلمح فيها قاضيًا حتى تراه جانبيًا وتراه فريسةً وتراه مقضيًا عليه، فلا حُكم ولا براهين ولا شريعة! بل حادث من حوادث القَدَر ينقضُّ كما تنقضُّ الصاعقة، أو يشتعل كما تشتعل النار.

هنا عناصر طبيعية لا تسأل فيها ماذا تنوي وماذا تريد؟ بل تسأل فيها ماذا عملت بعد أن تعمل، كالذي يهرب من السيل ليقع في الهاوية، وكالذي يهرب من البركان ليقع في اللجة الزاخرة، وكالذي يهرب من النمر لابتلعه التمساح، وكالذي يهرب من الرصاص لتنوشه الرياح، كل ما أنت قادر أن تجزم به هنا أنه لن يستطيع البقاء حيث كان ... وهل يستطيع البقاء حيث صار؟ كلا! ولا هنالك يستطيع البقاء.

فإذا سألت لماذا اعترم همام القطيعة بعد أن كان يعتزم التربص والمطاوله، فليس سبيلك أن تعلم أنه أثر القطيعة وحمد مغبتها واستمرأ مذاقها، وإنما سبيلك أن تعلم أنه لا قرار على ما كان فيه، وأنه مدفوع إلى الهرب منه كما يندفع الهارب من النمر إلى التمساح.

في أيام الرقابة وبعدها بأسابيع قليلة تكررت الزيارات وتسابق همام وسارة في الاستزادة منها وهما يتكلفان، ولا يجهلان أنهما يتكلفان.

أجل، ما كانا يتمليانه من سويغات الهوى في تلك الأيام إنما كان بالقياس إلى هواهما الخصب المطواع كالثمار المحفوظة في العلب بالقياس إلى الثمار على أشجارها بين غياضها وأنهارها.

ولم يكن همام يصور لحدسه كيف تشعر سارة بتلك السويغات المصطنعة، ولكنه هو كان يشعر شعورًا لا يزال يعاوده ويبرز أمامه كلما جهد في تبديله والإشاحة عنه بخياله، كان يشعر كَمَن يلهو ويتلاهى على مقربةٍ من جنازة وفي جوار مقبرة، فمن حيثما أقبل أو أعرض فهناك ظلال الموت، وكآبة الفناء، وسوانح الأحزان.

ومن أعجب ما كان يتمثله وهو يداعبها ويعانقها ذات يوم سرير شيخ محتضر يتابع التدخين ولا يلقي بلقيفة إلا أومأ إلى من حوله في طلب لقيفة أخرى.

وما كان الشيخ يصنع ذلك قبل أن يثقل عليه السقام ويتدانى منه شبح الحمام، ولكنه كان يدخن مرة فدخل عليه همام عائدًا، واستبشر قائلاً: بركة يا عماء! إن الذي يتطعم الدخان يتطعم العافية، وأراك تتقدم إلى الشفاء إن شاء الله.